لغة قريش

قبل أن نتكلم عما نريد من أمر اللغة القرشية ، نحرص أن نتكلم بإيجاز عن قبائل قريش ومكانتها من الشعب العربي .

(قريش) أبرز اسم في تاريخ الحياة العربية جاهلية وإسلامية . منحتها الطبيعية مزايا لا تكون إلا لسادة الشعوب ، وقد انتهت بها مكارمها إلى السيادة الدينية والاجتماعية واللغوية ، فكان منها النبي المرسل ، وفيها الكتاب المنزل ، ولها الخليفة المؤمل . ولم يفتها من فضائل القبيلة العربية شيء من النجدة والكرم وإباء الضيم والفصاحة والزكانة . ولو أعطيت من الشعر مثل ما أعطيت من غيره لتم لها الفضل من جميع أقطاره . وما زال العرب يقرون لها بكل فضيلة إلا الشعر حتى نبغ فيها عمر ابن أبي ربيعة المخزومي فأقروا لها بالشعر أيضاً « وإن لها درجاً تزلق عنها أقدام الرجال ، وأفعالاً تخضع لها رقاب الأموال وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة ، وألسنة تكل دونها الشفاة المشحوذة ، ولو احتفلت الدنيا ما تزينت إلا بهم ، ولو كانت لهم لضاقت بسعة أحلامهم » .

وهي قبائل انتهت مكارم الجاهلية إلى عشر منها ، وأشهرها بنو هاشم ، وبنو أمية وبنو مخزوم ، وبنو نوفل ، وبنو عبد الدار .

وساد العرب كثير من رجالاتها وهم لا يحصون عدداً كان لهم في الجاهلية مكارم وكرائم ، فمنهم هاشم الذي هشم الثريد ورجال مكة مُسنتُون عِجاف ، ومنهم شيبة الحمد عبد المطلب مطعم طير السماء ، وعثمان بن طلحة سادن الكعبة وحاجبها ، ويزيد بن زمعة مستشار قريش وقد استشهد مع النبي ﷺ في الطائف ، وورقة بن نوفل الذي أدرك الإسلام في الجاهلية بعقله وبشر خديجة بالنبي ﷺ .

وممن سادوا في الجاهلية والإسلام أبو بكر الصديق ، وكانت إليه في الجاهلية الديات والمغارم ، فإذا احتمل دية أمضت قريش حمالته ، وإذا احتمل غيره لم يمضوا ، وعمر بن الخطاب سفيرهم لدى القبائل ، والقائم بالمنافرة عنهم في المفاخرة ،

وخالد بن الوليد وكان على خيلهم في الحرب . ومنهم معاوية الحليم ، وعمرو بن العاص الداهية ، وسعيد بن المسيِّب الفقيه ، والإمام محمد بن إدريس الشافعي . ومنهم الملوك من بني أمية والخلائف من بني العباس والأطهار من آل البيت .

ومنهم سيدهم وسيد العالمين محمد بن عبد الله ﷺ . قيل لمعاوية أخبرنا عنكم وعن بني هاشم ، فقال : بنو هاشم أشرف واحداً ونحن أشرف عدداً ، فما كان إلا كلالاً حتى جاءوا بواحدة بذَّت الأولين والآخرين ، يريد النبي ﷺ ، وبقوله أشرف واحداً عبد المطلب بن هاشم

لكنا نتساءل من هو قريش ؟ ما هي القبائل القرشية ؟ لماذا سمي قريش قريشاً ؟ وفي الإجابة عن هذه الأسئلة اختلفت أقوال النسابين واللغويين ؛ يري جماعة منهم أن قريشاً علم على رجل ، ويختلفون هل هو النضر بن كنانة أو فهر بن مالك ؟.

جاء في اللسان « وقريش قبيلة سيدنا رسول الله ﷺ أبوهم النضر بن كنانة فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون ولد كنانة ومن فوقه » .

وفي العقد الفريد « وكانت قريش تدعى النضر بن كنانة ، وكانوا متفرقين في بني النضر بن كنانة فجمعهم قصيٌّ بن كلاب من كل أوب إلى البيت فسموا قريشاً ، والتقريش التجميع وسمى قريش مجمِّعاً فقال الشاعر :

قصيٌّ أبوكم كان يُدعى مجمِّعاً به جمَّع اللهُ القبائل من فهر

وإنما جمع قصي إلى مكة بني فهر بن مالك فجذم قريش كلها فهر بن مالك ، فما دونه قريش وما فوقه عرب ، مثل كنانة وأسد وغيرها من قبائل مضر » .

وهو خلاٌ نتيجته هيِّنة لأن النضر لم يعقب إلا مالكاً ، ومالك لم يعقب إلا فهراً .

على أني أرجح أن جماعة من العرب ألصقوا أنفسهم بقريش ، شأن الضعفاء في كل بلد ينتسبون إلى الأسرة الكريمة . وقد ذم الله سبحانه وتعالى بهذا فقال يصف بعض العرب : « عتُلٍّ بعد ذلك زنيم» والزنيم من ينتسب إلى من ليس منهم . وقال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نِيط خلف الراكب القدحُ الفرد

وكان إقبال العرب على الانتساب إلى قريش كبيراً حتى قال بعضهم متفكهاً «إني لأعجب للرجل يُسأل من أبوه فيقول أمي من قريش» .

أما اشتقاق الاسم فيقولون : إنه مأخوذ من اسم دابة في البحر تأكل كل دابة ، فجميع الدواب تخافها ، وينسبون هذا القول إلى ابن عباس ، وفي ذلك يقول الشاعر:

وقريش هي التي تسكن البحر (م) بها سميت قريش قريشاً

وقيل سميت بذلك لتجمعها حول مكة بعد تفرقها في البلاد تبتغي الرزق ، وقيل لتَجّرها وتكسبها ، إلى غير هذا . وكل عباراتهم تدل على أن قريشاً علم على هذه القبائل وليس علماً للنضر ولا لفهر ، ولم نعثر على عبارة تدلنا على أنه علم لرجل خلافاً لما يقوله بعض العلماء . وللجاحظ نص صريح في هذا ، قال في بعض رسائله « قد علم المسلمون أن خيرته تعالى من خلقه وصفيه من عباده ، والمؤتمن على وحيه ، من أهل بيت التجارة ، وهي معولهم ، وعليها معتمدهم ، وهي صناعة سلفهم ، ومسيرة خلفهم ، وبالتجارة كانوا يعرفون ولذلك قالت كاهنة اليمن : لله در الديار ، لقريش التجار . وليس قولهم (قرشي) كقولهم هاشمي وزهري وتميمي لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشاً فينسبون إليه ، ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش » .

وكانت التجارة من أسباب رقي قريش وسيادتها وسيطرة لغتها ، وكانت لهم رحلتان رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش : ١-٤].

ولكن التجارة كانت في ألسنة شعراء السياسة فيما بعد من مثالبهم ، يقول مسلم بن الوليد :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخـــــــــــر قريشُ وفخرها مستعـار
ذكرت عزها وما كان فيها قبل أن تستجيرنا مُستجـار
فلنا العز قبـل عـز قـريش وقريش تلك الدهور تِجـار

ولسنا نعني باللغة هنا ذلك المعنى الذي كان متعارفاً بين الرواة ، فقد كانوا يطلقون اللغة على « ما كان باقياً لعهدهم في ألسنة من أخذوا عنهم من القبائل » وإنما نعني باللغة الطريقة التي تتفاهم بها القبيلة مما يشعل اللهجة ودلالة الكلمة وبنيتها من تقديم أو تأخير وتصحيح أو إعلاء وحذف أو زيادة . ومن المشهور عند العلماء أن العرب كانت لهم لغات متعددة بهذا المعنى الذي ذكرناه ، وأن من هذه اللغات الفصيح والأفصح والضعيف . وقد اعتبروا قريشاً مركز الدائرة فلغتها فصحى اللغات ، ثم تليها في الفصاحة لغات القبائل اللصيقة بها ، وكلما بعد موطن القبيلة عن قريش بعدت المسافة بين لغتها ولغتهم ، ولذلك كانت القبائل التي تعيش في مشارف الشام أو تنزل ريف العراق أو على حدود مصر مشوبة اللغات لمخالطتهم الفرس أو الروم أو القبط ، وكانت القبائل التي تسكن سرة الجزيرة العربية نقية اللغة فصيحة اللهجة . وقد ذكروا أن القبائل الفصيحة التي عنها أخذت اللغة بعد قريش هي قيس وتميم وأسد وغلباً هوازن وهم سعد بن بكر وجشم ابن بكر ونصر بن معاوية وثقيف ، وكان أبو عبيدة يعتبر سعد بن بكر أفصح هؤلاء لقول النبي ﷺ « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر » ويقول فيهم أبو عمرو بن العلاء أفصح القبائل عُليا هوازن وسفلى تميم .

ولا شك أن هذه اللغات كانت متباعدة ، ولكن تهيأت لها أسباب التقارب من اختلاط عرب الشمال وعرب الجنوب الذي نشأ عن هجرة القحطانيين بعد تهدم سد مأرب واختلاط العرب في الأسواق ومشاعر الحج ، وما كان لقريش من عظيم الأثر في انتقائها أطايب اللغات ، ثم أخذ العرب عنها (فكان قريش يسمعون لغاتهم – القبائل – ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه ، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم ألان من طباعهم وكسر من صلابتهم فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس ، فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مُستبْشع اللغات ومستقبحها ، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم وسمت طبائعهم وقويت سلائقهم

وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس ، وكذلك كانوا يضربون في الأرض إلى فارس وإلى الحبشة ، فسمعوا مناطق الناس وتدبروا وجوه العذوبة في أعذبها وتناولوا كثيراً من ألفاظ تلك الأمم فدخلت كلامهم وأعربوها من الرومية والفارسية والعبرانية والحبشية والحميرية ، وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم في وسط العرب كأنهم مجمع لغوي يحوط اللغة ويقوم عليها ويرفع من شأنها ويزيد في ثروتها ، وبالجملة يحقق فيها كل معاني الحياة اللغوية)[1] .

لكننا ندهش حين نرى العلماء متفقين على أن قريشاً كانت بحكم مركزها الأدبي والديني تفرض لغتها على القبائل ، وأن الشعراء والخطباء جعلوا يحاكونها لتكون آثارهم أذيع ، ومعنى هذا أن لغات القبائل كانت في حاجة ماسة إلى محاكاة لغة قريش ، وأن هذه اللغة ظهرت على أخواتها من اللغات المضرية ، بل دخلت على الحميرية في موطنها . وهذا أمر لا أجد التاريخ اللغوي يساعده ، نعم كانت لغة قريش في الدرجة العليا من الفصاحة حتى صلحت لأن ينزل بها كتاب الله ، ونعم إن أهلها بذلوا جهوداً مشكورة لتهذيبها ، ولكن ليس معنى ذلك أن اللغات الأخرى كانت في حاجة إليها لتسموا آثارها الأدبية ، ولست ألقى القول على رسيلاته ، ولكني أؤيده بالحجة والدليل .

لقد عرفنا فيما سبق أن الذي جمع هذه القبائل التي سميت (قريشاً) إنما هو قصيٌّ ، وقد عاش قصي في أوائل القرن الخامس الميلادي ، وإليه صارت عمارة البيت الحرام بعد أن كانت في يد خزاعة ، فلابد أن يكون القرشيون مكثوا دهراً يجوِّدون في منطقهم ويهذبون في لغتهم ولم تكن القبائل آنذاك واقفة تنتظر ما تصل إليه قريش من نتائج ، بل كانت كل قبيلة تضيف إلى لغتها ما تستعذ به من لغات القبائل الأخرى .

وقد يساعدنا على ما نرمي إليه أن الرحلتين اللتين كانتا لقريش ، ومنهما استفادت كثيراً إنما سنهما هاشم وقد عاش في النصف الثاني من القرن الخامس ،

---

١ – تاريخ آداب العرب للرافعي ص ٨٣ ، ٨٤ .

ومع ذلك فقد وصلنا شعر كثير ونثر يرجع تاريخهما إلى ما قبل قصي ، وهذا الشعر وهذا النثر لايختلف في كثير ولا قليل عن أي شعر آخر وصلنا بلغة قريش ، وإذا صح ما اكتشف أخيراً من الكتابة التي وجدت على قبر أمريء القيس بالشام والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٣٢٨ م إذا صح هذا كان معناه أن امرأ القيس عاش قبل أن توجد قريش بقرن من الزمان ومع ذلك فشعره كأنه قرشي .

والذي نستطيع أن ندين به في هذا الأمر أن لغات القبائل أخذت تتقارب في زمن قديم ولم تبق في العصور الأخيرة إلا فوارق بسيطة كان جلها يرجع إلى اللهجة . ونحن نعجب لمن يقول إن أثر لغة قريش دخل على الحميرية في مهدها ، وهذا أبو عمرو بن العلاء يقول : « ما لسان حمير بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » . ولست أوافق من يتأول هذه الكلمة بما يفيد أن لغة الشمال ولغة الجنوب كانت متقاربتين بعد ما ثبت أن النبي ﷺ كانت تفد عليه بعض القبائل فيخاطبها بلسان لا يفهمه المضربون حتى قال له على بن أبي طالب : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تخاطب قبائل العرب بما لا نفهم أكثره . فقال عليه السلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . وكذلك كان جوابه لأبي بكر حين سأله مسألة على ، فعلى وأبو بكر وهما ما هما كانا لا يفهمان في بعض الأحايين أكثر لغة بعض القبائل ، وقد وصلنا شيء من هذه اللغات التي لم يكن يفهمها المضريون ، ومن أمثلة ذلك كتابه ﷺ إلى همدان « إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها تأكلون علافها وترعون عفاءها » ، وكتابه إلى وائل بن حجر الذي جاء فيه « إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب ، ومنه : وفي التيعة شاة لا مقوزة الألياط ولا ضناك وأنطوا الثبجة ، وفي السيرب الخمس » . غير أنه كان في الجنوب قوم متحضرون عذبت ألسنتهم ورقت حواشي كلامهم مع أن أثر قريش لم يكن وصل إليهم ، ولو سلمنا أنه وصل فهو أثر ضعيف لا ينتج لغة عذبة لطيفة رقيقة الحواشي .

روى القالي في أماليه عن رواته قال « مات أخ لذي رعين فعزاه بعض أهل اليمن فقال : إن الخلق للخالق ، والشكر للمنعم ، والتسليم للقادر ، ولابد مما هو كائن ، وقد حل ما لا يدفع ، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات ، وقد أقام معك

ما سيذهب عنك ، وستتركه ، فما الجزع مما لابد منه ، وما الطمع فيما لا يرجى ، وما الحيلة فيما سينقل عنك أو تنقل عنه وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد الأصل ؟ فأفضل الأشياء عند المصائب الصبر ، وإنما أهل الدنيا سفر لايحلون عن الركاب إلا في غيرها».

فإذا عرفنا مع ذلك أن قريشاً تخلفت في الشعر فلم يكن منها نابغون فيه ، وكذلك كانت الحكومة في الشعر في عكاظ لغيرها ، وأمر النابغة الذبياني مشهور ، والحكومة بين العرب لم تكن لها أيضاً ، بل كانت لبني تميم ، وكان آخرهم الأقرع بن حابس .

إذا عرفنا ذلك مضافاً لما تقدم أمكننا أن نخفف من غلواء هؤلاء الباحثين الذين يجعلون لقريش أكبر الفضل في تهذيب اللغة العربية ، وأمكننا ألا نبخس القبائل العربية الأخرى حظها الوفير في هذا التهذيب .

وقد كانت في لغة قريش بعض الهنات التي لا تتفق مع الفصحة فتجنبها القرآن الكريم.

والقرآن الكريم نزل باللغة العربية الفصحى – كما هو معروف ، ولم يختلف في ذلك أحد على أحد . ثم اتفقت كلمتهم كذلك على أن اللغة التي شرفها الله تعالى أن ينزل القرآن بها من بين لغات العرب هي (لغة قريش) . ولم نجد لأحد من العلماء خلافاً في ذلك ولا ارتياباً فيه . فهو أمر تواتر نقله ، واشتهر بين العلماء .

وقد ذكروا في ذلك أخباراً نعتبرها بعد تواتر الأمر من الأدلة الحاسمة .

ذكر التاريخ القرآني ، وهو تاريخ تهيأت له كل أسباب الصدق والثقة ، وأخذ بكل حيطة وحذر ، وتحرى العلماء فيه كل التحري . ذكر من ذلك ما نجعله من الأدلة القوية على أن القرآن أنزل بلغة قريش . من ذلك :

١ – سيدنا عثمان – رضي الله عنه – حين رأي اختلاف الناس في القراءة ، وخاف عاقبة ذلك فيمن يخلف من الأجيال والقرون رأي أن يجمع الناس على قراءة واحدة ، ويريدهم على مصحف واحد يأخذون عنه ، ويحتكمون إليه ، فدعا الصحابة

الأجلاء (زيد بن ثابت الأنصاري ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن العاص – القرشيين ، وقال لهؤلاء الثلاثة – بعد أن دفع إليهم الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر – رضي الله عنه – : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فإنه نزل بلغتهم .

٢ – وقد اختلفوا في كلمة (التابوت) من قوله تعالى : ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة : ٢٤٨] فقال زيد : تكتب (التابوه) بالهاء ، وقال القرشيون : تكب (التابوت) بالتاء المفتوحة ، فلما رفعوا أمرهم إلى عثمان – رضي الله عنه – أمرهم أن يكتبوها بالتاء لأنها كذلك في لغة قريش .

٣ – ما روي عن سيدنا عمر – رضي الله عنه – أنه قال : (لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف) .

وليس معنى ذلك أن كل كلمة في القرآن نزلت بلسان قريش . لا . فإن في القرآن ألفاظاً ما هي من لغة قريش ، ولحوناً ليست من لحنهم . وقد قيل إن في القرآن ألفاظاً من أربعين لغة عربية ، وممن ذكروا ذلك (الواسطي) الذي عدد القبائل التي ورد شيء من لغاتها في القرآن ، ومن الأدلة على ذلك :

١– ما روى صفوان بن سالم أنه سمع رسول الله – ﷺ – يقرأ (يحيى) بالإمالة ، فقيل له : يا رسول الله : تميل ، وليس هو لغة قريش ، فقال : هو لغة الأخوال بني سعد.

قلت : (وهذا أيضاً دليل على أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش . فهم لم يستفهموا من الرسول ﷺ هذا الاستفهام إلا وهم على علم تامٍّ بأن القرآن نزل بلغة قريش ، وأن هذا كان أمراً مشهوراً عندهم ، متعارفاً عليه بينهم) .

٢– ما روى عن الحسن – رحمه الله – أنه قال : كنا لا ندري ما الأرائك حتى لَقينَا رجل من أهل اليمن فأخبرنا أن الأريكة عندهم : الحجلة فيها سرير .

٣- وما روى عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهم - أنه قال : ما كنت أدري ما قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف : ٨٩] حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري ، وهي تقول : أفاتحك . تعني: أقاضيك . وفي سورة (السجدة) : ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي : متى هذا القضاء .

٤ - ما روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً من قوله : ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها يعني : ابتدأت حفرها .

٥ - وكذلك ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - من قوله : ما كنت أدري ما معنى (يحور) حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حوري . أي : أرجعي .

ذكر ذلك الزمخشري في الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق : ١٤] .

٦ - ما روي من أن محمد بن مناذر الشاعر نزل مكة ، فقال له أهلها : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة ، فقال ابن مناذر : أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن - بعد هذا - حيث شئتم :

أنتم تسمون القدر (برُمة) ، وتجمعوها على برام ، ونحن نقول قدر نجمعها على قدور ، قال تعالى : ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ : ١٣] ، وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت (عُلِّيَة) وتجمعون هذا الاسم على (علالي) ، ونحن نسميه (غُرفة) ونجمعها على (غرف) ، قال تعالى : ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر : ٢٠] . ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[1] [سبأ : ٣٧] وأنتم تسمون الطلع الكافور والإغريض ، ونحن

---

١ - والعلية بكسر العين وضمها مع تشديد اللام المكسورة .

نسميه (الطلع) . وقال الله تبارك وتعالى : ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء : ١٤٨] . قال راوي القصة أبو سعيد عبد الكريم ابن روح: فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا [١] .

ومن الكلمات التي نص العلماء على أنها ليست من لغة قريش كلمة ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ في قوله تعالى : ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات : ١٤] أي لا ينقصكم ، وقد قالوا إن هذه الكلمة من لغة بني عبس .

ولم يقف هذا الأمر عند الكلمة والكلمتين أو الكلمات ، بل كان القرآن الكريم يرفض الأصل من أصول اللغة القرشية ، وينزل على غيره ، ومن ذلك أن قريشاً لم تكن تهمز في كلامها ، وإنما كانت لغتها التخفيف .

جاء في مقدمة لسان العرب : قال أبو زيد : أهل الحجاز ، وأهل مكة والمدينة وهذيل لا ينبرون (النبر : الهمز) . وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له : يا نبيء الله ، فقال عليه السلام : لا تنبر باسمي . إنا معشر قريش لا ننبر .

وروى عن على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – أنه قال : نزل القرآن بلغة قريش ، وليس من لغتها النبر ، ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمز ما همزنا .

ولما حج المهدي الخليفة العباسي ، ودخل المدينة قدم (الكسائي) العالم النحوي المعروف ليصلي بالناس ، فقرأ بالهمز ، فأنكر عليه أهل المدينة ، وقالوا : أتنبر في مسجد رسول الله بالقرآن (من غير همز في القرآن) .

وهذا الخبر يدل على أن أهل المدينة إلى عهد المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ) كانوا ينكرون الهمز ، وينكرون على من يقرأ به القرآن .

ولكن المروي عن سيدنا (على) يدل على أن القرشيين نطقوا بالهمز بعد أن نزل به القرآن.

---

١ – البيان والتبيين جـ١ ص ١٨ ، ١٩ .

ولعل المخرج من هذا التناقض الظاهر أن من طاوعه لسانه ممن لا يهمزون . نطق بالهمز ، ومن بقى على طبعه ثابتاً على ما كان عليه بقي على لحنه الأول ، وقد كان الذين أنكروا على الكسائى من الفريق الثاني .

وربما كان الأكثر في القرآن لغة غير القرشيين ، فهو ينزل بها وبغيرها ، ولكنه يكون بلحن غيرها أكثر ، كما ذكروا في ضم هاء الغائب إذا كان قبلها ياء أو كسرة ، فهذه لغة قريش ، وبها قرأ حفص : ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف : ٦٣]. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] . وقرأ حمزة : ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ [طه : ١٠] . كل ذلك بضم الهاء في (انسانيهُ – عليهُ – لأهلهُ) وقبل الأولين ياء ، وقيل الثالثة كسرة – وغير القرشيين ينطقونها في كل ذلك بالكسر ، وهو في القرآن أكثر .

وكما ذكروا في كلمتي (براء وبريء) فإن الأولى لغة قريش ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٦] .

وبنو تميم وغيرهم من العرب لغتهم (بريء) ، وهي في القرآن أكثر استعمالاً قال تعالى : ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ [التوبة : ٣] وقد وردت في القرآن في أحد عشر موضعاً .

وكثيراً ما تكون لغة قريش هي الكثرة الكاثرة ، سواء من ناحية استعمال المفردات أو من ناحية اتباع القواعد .

فمن ذلك أن إلزام المثني الألف في جميع أحواله لغة قبائل من العرب .. منها : بنو الحارث بن كعب ، وزبيد ، ومراد ، وعذرة ، وبطون من ربيعة وبكر ، وبنو الهميم من تميم – وهي لغة غير مشهورة ، وإن كانت القراءة المشهورة في بعض الآيات جاءت على هذه اللغة ، وذلك قوله تعالى : ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه : ٦٣].

ولكن كل ما جاء من المثنى في القرآن غير هذا فالمشهور فيه استعمال المثنى بالألف في حالة الرفع ، وبالياء في حالتي النصب والجر ، وإن قرئ في بعض الآيات على غير المشهور ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف : ٨٠] فقد قرئ (مؤمنان) .

وقد وردت أحاديث قليلة استعمل فيها المثنى بالألف مطلقاً ، نحو قوله ﷺ : (لا وتران في ليلة) وهذا من الأدلة على أن بعض القرشيين ومنهم النبي ﷺ كان ربما نطق بغير لغته ، وإن لم يدخل هذا الاستعمال في لغة قريش ، بل ظل متميزاً عنها .

ومن ذلك الفعل المضارع المدغم المجزوم ، فإن لغة أهل الحجاز – ومنهم قريش – فك الإدغام – وهي أفصح اللغتين – وعليها أكثر ما جاء في القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ﴾ [آل عمران : ١٢٠] وقوله : ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه : ٨١] وقوله : ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر : ٦] .

وكذلك فعل الأمر المدغم . الأكثر فيه الفكُّ ، وهو لغة قريش . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ [لقمان : ١٩] .

ولغة بني تميم ، وبقية العرب بقاء الإدغام ، وقد جاء عليه قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة : ٥٤] وقرئ من (يرتدد) قال الزمخشري في الكشاف : (وهو في الإمام – يريد مصحف عثمان – بدالين) .

وعلي لغة التميميين قرئ قوله تعالى : ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر : ٤] وقد جاء فك الإدغام في هذه الكلمة في قوله تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] . وفي قوله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال : ١٣] .

وقد يلتزم القراء السبعة لغة قريش ، ويتركون غيرها كما في نصب المستثني في الاستثناء المنقطع ، فقريش تلتزمه ، وبنو تميم يجيزون فيه الرفع ، وقد أجمع القراء السبعة على النصب في قوله تعالى : ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء : ١٥٧] وقوله سبحانه : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ [الليل : ١٩-٢٠] .

ومن ذلك إجماع القراء السبعة على النصب في قوله تعالى : ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًاۚ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف : ٣١] ، لأن (ما) النافية تعمل عمل ليس عند الحجازيين ، ولاتعمل عند بني تميم .

أما الإمالة والتفخيم والروم والإشمام ، فالأصل فيها أن كل قوم يقرءون بلهجتهم ، وإن كانت بعض الكلمات كثر فيها التسكين على لغة غير القرشيين ، وقل فيها التفخيم ، وهو تحريك أواسط الكلمات بالضم أو الكسر على لغة قريش ، ومن ذلك : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة : ٩] فالقراءة بضم الميم في (الجمعة) وضمها لغة قرشية ، وقريء بسكونها، والسكون لغة غير الحجازيين ، فإن أهل الحجاز يفخمون الكلام كله ، أي يحركون وسطه ، إلا كلمة (عشرة) فإنهم يسكنون وسطها ، وبلغتهم اشتهرت قراءتها ، وتحريكها بالكسر لغة أهل نجد .

والذي أستطيع أن أؤَكده – بعد كل هذا – أن اللهجات العربية تقاربت في زمن قديم ، ولم يبق بينها إلا فوارق يسيرة هي التي لاحظها القرآن عند نزوله ، فلم يشأ أن يجهد العرب الذين ثبتت ألسنتهم على لهجة خاصة ، أو نطق خاص لبعض الكلمات ، وقد يسر الله سبحانه القرآن للذكر فكان من الطبيعي ألا يكلف الذين أنزل عليهم فوق طاقتهم ، ويلويهم عن لهجتهم إلى لهجة أخري ربما كان من العسير عليهم أن ينطقوا بها ، وهذا فيما أعتقد سر نزول القرآن على الأحرف السبعة .

****